المعرفة

من الأحادية إلى التعدد والمعايشة

داود فرعون

تدور هذه التجربة حول قصة انخراط المعلم في مشروع لتحضير مصادر تعليمية فيلمية تفاعلية ضمن مشروع المحاكاة التفاعلية/ مركز القطان، وتعرض ما تحقق خلال هذه العملية من تحولات في تصورات المعلم عن ذاته ومهنته وعلاقاته وأدواره.

مقدمة

الثقافة والمعرفة، المحاكاة ووسائل التعلم، كلمات -أو بالأحرى مفاهيم- لها مدلولات مختلفة من شخص إلى آخر حسب توجهاته الفكرية، أو السياسية، أو الاجتماعية، أو الاقتصادية، . . . الخ.

ربما يستطيع أحدنا أن ينظِّر على الآخرين من خلال هذه المفاهيم، ولكن الفرص ليست دائماً متاحة أمام كل شخص للتعبير عن رؤيته لهذه المفاهيم.

في بعض الأحيان يكون السكوت من ذهب، إلا أن الأمر يختلف إذا كان للكلام فائدة، عند ذلك يكون سماعه أيضاً من ذهب.

من هنا أحببت أن أعرض تجربة شخصية خرجت فيها من شرنقة المصادر المحددة لاكتساب الثقافة إلى عالم واسع من المعرفة.

فبعد أن كنت معتمداً على الكتاب فقط للتزود بالمعرفة، دون محاورة الآخرين في مضمونها، للاطلاع على تفسيرات مختلفة للمعرفة الموجودة فيها، وبعد توقف الزمن لدي، وبأنني معلم مثقف لدي جميع المكونات العلمية والمهنية والشخصية لقيادة الطلاب إلى عمق

المعرفة، بعد كل ذلك دخلت في غمار عمل تطوعي، من خلاله تغيرت لدي مدلولات مفاهيم الثقافة والمحاكاة، وأصبح لدي أساليب جديدة في الحوار وفي توضيح المعرفة للطلاب والآخرين.

كانت التجربة العملَ ضمن فريق من المعلمين في مشروع المحاكاة التفاعلية والأفلام التعليمية في تعلم وتعليم العلوم.

لقد كان لمعايشتي المراحل المختلفة من هذه التجربة نظرة مختلفة في مفهوم المحاكاة، الذي تغير من نطاق ضيق إلى ما هو أوسع، بعد تعدد مصادر الثقافة وتنوعها، بالإضافة إلى تغير الأساليب في عملية التعليم والتعلم، والمشاركة الفاعلة مع البيئة المحيطة.

نعم، لقد خرجت من الشرنقة فراشة ترنو إلى عالم الثقافة اللامحدود، وتفتح نظري وذهني على عوالم متعددة من المعرفة، عوامل متداخلة متفاعلة، وعلى الرغم من تقدمي في العمر، فقد قدمت لي الجديد والممتع.

قصة البداية أم بداية القصة

في بداية هذا العام، قرأت إعلاناً في صحيفة القدس لمركز القطان للبحث والتطوير التربوي - مؤسسة عبد المحسن القطان، يطلب معلمين متطوعين للعمل في مشروع استخدام المحاكاة التفاعلية والأفلام التعليمية في تعلم وتعليم العلوم.

بصراحة، تحدثت مع نفسي، هل أستطيع بعد أن شارفت على الخمسين أن أقوم بعمل تطوعي، ثم ماذا أستطيع أن أقدم في هذا المشروع، فمفهوم المحاكاة لدي هو: إنها الوسائل التعليمية المتوفرة في المدرسة من جداول وخرائط ومجسمات ومختبر وحاسوب.

لذلك لم تتضح لدي صورة عن العمل الذي سأقوم به لو دخلت هذا المشروع. وعلى الرغم من كل هذا، قمت بتعبئة الطلب وأرسلته للمشرفين على المشروع من خلال البريد الإلكتروني.

بعد أيام تم استدعاء مجموعة من المعلمين، وأنا منهم، يزيد عددهم عن خمسة عشر معلماً، وكان الاجتماع الأول الذي من خلاله اتضحت الصورة لدي عن المشروع، ولكن عندما نظرت في وجوه هذه المجموعة قلت في نفسي ما الذي أتى بك؟ فالمشرف على المشروع على الرغم من درجته العلمية، فإنه يصغرك سناً، والفرق بيني وبين بقية المعلمين والمعلمات الحاضرين هناك في العمر لا يقل عن عشر سنوات، ومن أقوال مشرف المشروع في ذلك الاجتماع إن العدد كبير، والمشروع بحاجة لخمسة في الوقت الحاضر، وخمسة في منتصف المشروع للقيام بتجربة عناصر المشروع. في تلك اللحظة تبادر إلى ذهني أن أنسحب أولاً لكبر سني، وثانياً لأن التخصصات المطلوبة هي «فيزياء، كيمياء، أحياء»، وبالأخص من يقومون بتدريس العلوم للمرحلة الأساسية من الخامس إلى العاشر، وثالثاً لأن المكان بعيد بالنسبة لي.

تمت دعوة المجموعة لاجتماع آخر بعد أسبوع، وفي الموعد المحدد استشرت نفسي في الذهاب ثم تغلبت على التردد وكم كانت مفاجأة لي بأن العدد تقلص إلى أقل من عشرة معلمين ومعلمات، وهنا قمت بتحدي نفسي، وأصبح لديّ إصرارٌ على الاستمرار. حتى أنني أصبحت أتحين الفرص في بعض الأيام التي لا يوجد فيها دوام

مدرسي للحضور إلى المركز والعمل في المشروع.

وبما أن تخصصي هو تكنولوجيا وعلم حاسوب، فقد تم إسناد أعمال تتناسب مع هذه التخصص، وهذه الأعمال هي تسجيل أفلام علمية مناسبة للمناهج المدرسية المختلفة في العلوم (كيمياء، فيزياء، أحياء).

طبيعة العمل

كانت خطوات العمل كالتالي:

1. البحث في برامج القنوات المختلفة عن مواضيع تناسب المناهج الموجودة.
   - لقد كان البحث عبارة عن انجذاب لعناوين دون معرفة المحتوى.
   - عرض العناوين على المشرف وأعضاء المجموعة والتحاور والمناقشة، وأدى هذا إلى خلق أسلوب جديد لدي في المحاورة، ومحاولة ترسيخ خبرتي من خلال العنوان، ولكن من خلال هذه المحاورة اكتشفت أيضاً أنني أتزود من ثقافة الزملاء الآخرين في المجموعة، وبالتالي أصبحت أتقبل الآخرين بكل ما لديهم، وأشتاق دائماً لسماع ما لديهم من المعرفة، وأصبحت عندما أسرد فكرة أسردها من منطلق الود وليس من منطلق النصيحة.
2. بعد ذلك يتم تسجيل الحلقات التي تم الاتفاق على عناوينها، وصدقاً من خلال هذه الخطوة وعلى الرغم من دراستي في التكنولوجيا، فإنني لم أكن قريباً للتكنولوجيا مثل قربي لها في هذه الفترة.
3. من ثم نقوم بمشاهدة التسجيلات، وعمل مونتاج لها، ومن هنا ازداد تعلقي بهذه التسجيلات لأسباب:
   - أنني استطعت أن أتزود بمعارف كثيرة لم يكن في الحسبان أن أقرأ عنها في كتاب أو مجلة.
   - عندما يكون هناك مجال لسرد معرفة أو فكرة على طلابي أو حتى زملائي المعلمين، أصبحت أجيبهم بإسهاب، وكأنني أعايش المعرفة من جميع جوانبها.
   - أصبح لدي هواية جديدة بعد المطالعة وهي ممارسة المونتاج.
4. من خلال مشاهدة التسجيلات يتم تحليلها ورصد محتواها، فإذا كان هذا المحتوى مناسباً لفئة عمرية أو مستوى دراسي معين، يتم نقله من جهاز الـ(DVD) إلى قرص مضغوط، ووضع اللمسات النهائية عليه وحفظه في المكتبة.

من خلال هذه التجربة، تغيرت مفاهيمي كماً ونوعاً، فأصبح لي رأي آخر في الثقافة، في المحاكاة، رأي آخر في المعرفة، خرجت من الشرنقة دون أن أمزقها، وذلك لكي أضعها في إطار يبقى أمام ناظري، يحاورني ويسألني دائماً: **هل أوقفت الزمن أم أنك مستمر في التزود من المعارف؟**

أصبحت الثقافة برأيي هي الحصول على المعرفة من مصادر متعددة: من الكتاب، والإنترنت، والتلفاز، من الحديث مع الزملاء، والحوار حول تجربة ما.

أصبحت أستقي المعرفة من سؤال طالب مبدع يثير فيَّ السخرية من نفسي إن لم أستطع الإجابة، أو من سؤال طالب أبهمت عليه الأمور ويستنجد بي لأوضح له ألغاز المعرفة التي أمامه.

لقد أصبحت أبحث عن المعرفة من خلال أسئلة بريئة ولكنها مثيرة، عندما تصدر عن شفتي طفل، وأيضاً من خلال حديث إنسان لا يستطيع فك الحروف. **لقد فوجئت بأنه ينقصني الكثير وتيقنت بأن مسيرة المعرفة لا نهاية لها.**

لقد أصبحت أتزود بمعرفة جديدة مع كل تسجيل أقوم به، لاسيما أنني أصبحت أشاهد الفيلم المسجل من البداية وحتى النهاية، ومن خلال ذلك كنت أتزود بمعلومات جديدة ومتجددة.

استخدام المحاكاة في عملي كمعلم

أما المحاكاة، فقد تغير مفهومها لدي، أصبحت أرى أنها التعايش مع المعرفة لتصبح أنت وهي كينونة واحدة، ولن يتم التعايش إلا إذا قمت باستغلال الواقع بتوضيح ما لديك من معرفة. لقد عايشت ذلك من خلال عرض أحد الأفلام المسجلة لطلاب الثانوية العامة بعنوان «ثورة الهاتف الخلوي».

الخطوات

1. قمت بشرح مقدمة موضوع الاتصالات اللاسلكية والهاتف النقال ومراحله المختلفة على الطلاب بحصة سابقة، وأحضرت بعض الأجهزة النقالة من الأجيال المختلفة للاستدلال بها كأمثلة على الموضوع، فوجدت أن كثيراً من الطلاب لديهم معلومات عن الهواتف النقالة أكثر من معلوماتي أنا. وكان تعليقي في تلك الحصة أن الموضوع قصير ولا يحتاج منكم إلا إلى تركيز في الدراسة، وحددت امتحاناً في الموضوع في الحصة التالية، حيث تبين لي بعد الامتحان أن علاماتهم -على الرغم من قصر الدرس- غير مقبولة.
2. في الحصة التالية قمت بعرض الفيلم، وكانت الحصة الثالثة؛ أي قبل الخروج إلى الاستراحة. وقد طلبت منهم أن يتابعوا الفيلم، ولم أقم بالتعليق خلال هذا الفيلم نهائياً، غير أنني حددت بداية العرض عن كل جيل من أجيال الهاتف النقال.

كم كانت مفاجئة بالنسبة إليّ الأحداث التي حصلت:

1. كانت مدة الفيلم تقارب الخمسين دقيقة، علماً أن الحصة الدراسية 40 دقيقة، فقد رفض الطلاب الخروج إلى الاستراحة إلا بعد إتمام مشاهدة الفيلم.
2. لم يمل الطلاب ولم يتهامسوا كما يحصل في الحصص العادية.
3. لم يكن هناك أي تعليق خلال عرض الفيلم، بل انجذاب إلى ما

يتم عرضه، علماً أنني عندما أقوم بالشرح في الحصص العادية يكون هناك مداخلات من بعض الطلاب التي أسمح بها إذا كانت إيجابية، وتدعم سياق الدرس.

4. طلب الطلاب مني أن أقدم لهم امتحاناً في محتوى الفيلم في المدة الباقية من الاستراحة. لم أفعل، وحددت لهم الامتحان في الحصة التالية، حتى أرى إن كان هناك استمرار لتأثير الفيلم عليهم.
5. بعض المعلمين شاهد جزءاً من الفيلم، فطلب مني أن أحضر له أفلاماً مناسبة لعرضها على الطلاب.
6. ومن باب المساواة، عرضت الفيلم على شعبتي الثانوية العامة في المدرسة، فكانت النتائج متطابقة.
7. قدمت لهم امتحاناً في الدرس في الحصة التالية، فكانت أقل علامة ثمانية من عشرة، مع العلم أنني أقدم الامتحان للطلاب بحيث يكون هناك نموذجان مختلفان من الأسئلة للصف الواحد.
8. خلق الفيلم لدى الطلاب انطباعات مختلفة، فبعضهم علّق أنه لم يزد لديه أي شيء، وكانوا اثنين فقط من الشعبتين. مجموعة أخرى علّقت على أنَّ شرحي أوصل لهم الفكرة، ولكن أحداث الفيلم وسرده للمعرفة من واقع الحياة، رسَّخَ الأفكار عندهم وجعلهم يتفاعلون معها أكثر.
9. لقد كنت أتصور أن شرحي للدروس وتوجيهي الأسئلة يكفي، ولكن كان تأثير عرض الفيلم على الطلاب أكبر بكثير من الشرح.

ومن خلال هذه التجربة خرجت بنتائج هي:

- تخلقت شراكة بيني وبين المعلمين في المعرفة من خلال الحوار والنقاش الجاد حول مواضيع مختلفة، بعد أن كنت دائماً سارداً للنصائح.
- أصبحت هناك شراكة حقيقية بيني وبين طلابي في طلب المعرفة، وأصبحت دائماً أحاول أن أتعايش أنا وهم مع المعرفة من خلال الواقع الذي نعيشه، مدعوماً بواقع وبيئة غيرنا في هذا العالم.
- أصبحت هناك وقفة مع كل درس من دروس المنهاج: هل يجب أن يكون هناك محاكاة، **وهنا تراءت لي بعض المخاوف**:
- إذا كان الدرس طويلاً، فهل أستطيع أن أحصل على محاكاة تغطي جميع الدرس أم أن المحاكاة ستحتاج إلى محاكاة أخرى لتفسرها؟
- إذا كان الدرس قصيراً، هل سأجد محاكاة توضحه دائماً؟
- إذا خرجت المحاكاة ومضمونها عن الإطار العام للمنهاج، هل لدي القدرة كمعلم أن أشد لجامها وأعيدها إلى واقع المنهاج، أم أنها ستبقى فرساً جموحاً لا أستطيع السيطرة عليها؟
- إذا اعتاد الطالب على المحاكاة، فهل سيقوم بدراسة المنهاج أم أنه سيكتفي بما عايشه من المحاكاة.
- هل سيعتمد المعلم على معايشة الطالب للمحاكاة وينسى دوره كمرشد وموضح للمعلومة.

النتائج النهائية للتجربة

- في النهاية أصبحت أسعى دائماً إلى طلب المعرفة، من مصادرها المتاحة كافة.
- أرى أنه واجب عليّ مشاركة الآخرين بما لدي من معرفة.
- أستمتع بمعايشة تجارب الآخرين.
- أنضوي تحت لواء كل من يزودني بمعرفة جديدة مفيدة.
- سأبقى متعلماً، ولن أكون في يوم من الأيام عالماً، لأن ذلك يزيدني توهجاً وإشعاعاً ويبعدني عن الاضمحلال.

داود فرعون
مدرسة مسقط الثانوية للذكور – أبو ديس